

دور الأمراء النوبيون المحبوسون في سجن القلعة في أسلمة مملكة مُقرة

أستاذ مساعد- قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الخرطوم

د. محمد آدم عبدالرحمن حامد

المستخلص:

تهدف هذه الورقة إلى دراسة دور الأمراء النوبيين الذين حبسهم الممالك بسجن القلعة بالقاهرة في أسلمة مملكة مُقرة، ثم انتشار الإسلام في السودان، هذه الدراسة عبارة عن محاولة لدراسة الأسباب التي أدت إلى سجن هؤلاء الأمراء النوبيين بالقاهرة، وكيف تدخل الممالك إلى هذا الحد في شؤون مملكة مُقرة المسيحية. قُسمت الورقة إلى عدة محاور: النوبة والممالك، الأمراء النوبيون في البلاط المملوكي، النوبة بعد الأمير شكندة، تنصيب الأمير داؤود، الأمير سيف الدين عبدالله برشمبو. حُجة الدراسة: تقوم هذه الدراسة على الحجة الآتية: ما هو الأثر الذي نتج عن سجن الأمراء النوبيين المسيحيين بسجن القلعة بالقاهرة، وما هي النتائج التي ترتبت على ذلك، ثم دراسة التغيير الذي حدث بعد تنصيب هؤلاء الأمراء ملوكاً على مملكة مُقرة. نتائج الدراسة: من النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، أن الممالك استغلوا ضعف ملوك مُقرة وفرضوا همينتهم عليها، نتج عن هذا الوضع أن صار الممالك يعزلون ملوك مُقرة المسيحيين ويعينون الأمراء النوبيون المسلمين، ومن النتائج المهمة أيضاً: الدور الحاسم الذي لعبه هؤلاء الأمراء في أسلمة مملكة مُقرة. أسئلة الدراسة: ما هي طبيعة العلاقات بين مملكة مُقرة والممالك بمصر؟ كيف تحكم الممالك في شؤون مملكة مُقرة؟ كيف تم سجن الأمراء النوبيين في القاهرة؟ ثم كيف لعب الأمراء النوبيون الذين كانوا محبوسون بسجن القلعة بالقاهرة في أسلمة مملكة مُقرة المسيحية؟ وما هي النتائج المترتبة على ذلك؟ منهج الدراسة: تتبع هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي الذي يقوم على جمع المعلومات من مصادرها الأولية والثانوية ومن ثم تحليلها.

كلمات مفتاحية: مملكة مُقرة، الممالك، الأمراء النوبيون، سجن القلعة، أسلمة، ثقافة اسلامية.

The role of the Nubian princes imprisoned in the citadel prison in the Islamization of Makuria

Dr. Mohammed Adam Abdalrahman Hamid

Abstract:

This paper aims to study the role of the Nubian princes who were imprisoned by the Mamluks in the Citadel prison in Cairo in the Islamization of the Kingdom of Makuria, and then the spread of Islam in Sudan. This study is an attempt to study the reasons that led to the imprisonment of these Nubian princes in Cairo, and how the Mamluks interfered to this extent in the affairs of the Kingdom of Makuria. The paper was divided into several parts: Nubia and the Mamluks, Nubian princes in the Mamluk court, Nubia after Prince Shakanda, the installa-

tion of Prince Daoud, Prince Saif al-Din Abdullah Barshambo. The argument of the study: This study is based on the following argument: What is the impact that resulted from the imprisonment of the Christian Nubian princes in the Citadel Prison in Cairo, and what are the results that resulted from that, then studying the change that occurred after the installation of these princes as kings of the Kingdom of Makuria. Results of the study: Among the findings of this study is that the Mamluks took advantage of the weakness of the kings of Makuria and imposed their hegemony on it. This situation resulted in the Mamluks deposing the Christian kings of Makuria and appointing Muslim Nubian princes. Another important finding is: the decisive role that these princes played in Islamization Kingdom of Makuria. **Study questions:** What is the nature of the relations between the Kingdom of Muquria and the Mamluks in Egypt? How did the Mamluks control the affairs of the Kingdom of Mukria? How were the Nubian princes imprisoned in Cairo? Then how did the Nubian princes who were imprisoned in the citadel prison in Cairo play in the Islamization of the Christian kingdom of Makuria? What are the consequences of that? **Study Methodology:** This study follows the historical and analytical approach, which is based on collecting information from primary and secondary sources and then analyzing it.

Keywords: Kingdom of Makuria, Mamluks, Nubian princes, Citadel prison, Islamization, Islamic culture.

مقدمة:

لدراسة دور الأمراء النوبيين المحبوسين في سجن القلعة في أسلمة مملكة المُقَرَّة، لابد من دراسة طبيعة العلاقات النوبية المماليك أولاً، ثم دراسة الأسباب التي أدت إلى حبس هؤلاء الأمراء بسجن القلعة. لم تذكر المصادر في هذه الفترة شيئاً عن العلاقات النوبية مع دولة المماليك بقيادة الظاهر بيبرس إلا القليل، غير أن العلاقات بينهم قد اتخذت شكلاً مغايراً لما كانت عليه في السابق، حيث دخلت على منعطف مختلف تماماً، ذلك أن المماليك في بداية عهدهم قد لعبوا دور النصير لبعض الملوك النوبيين الذين استنجدوا بهم ضد ملوك نوبيين آخرين منافسين لهم على العرش، فناصر المماليك بعضهم وحبسوا البعض الآخر، فظهرت سلسلة ملوك نوبيين كان جزء منهم موالي للمماليك، وجزء آخر كان معارضاً فحبسهم المماليك.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تسلط الضوء على موضوع مهم في نتج عن طبيعة العلاقات النوبية المملوكية، كما تعكس دور الممالك في زوال مملكة مُقَرَّة المسيحية وهي بذلك تكشف عن أحد أهم الأسباب في سقوط مملكة مُقَرَّة. وتكشف لنا دور بعض الأمراء النوبيين في أسلمة مملكة مُقَرَّة المسيحية.

مشكلة الدراسة:

تمثلت مشكلة الدراسة في أن طبيعة العلاقات بين مملكة مُقُرة والممالك كانت مُعقدة لدرجة تشابك فيها الحقائق والمعلومات، فتحتاج عملاً شاقاً لتبيان الحقائق العلمية، ومن المشاكل التي واجهتها الدراسة أن معظم المصادر الرئيسية التي تناولت الموضوع كانت كتابات الكتاب العرب الذين يميلون قليلاً لتمجيد ملوكهم.

النوبة والممالك:

يعتبر العهد المملوكي (923-643هـ/1517-1250م)، نقطة تحول حاسمة في علاقة مملكة النوبة، (مُقُرة)، بمصر الإسلامية. فقد اتخذ الملك داؤود سياسة هجومية ضد مصر عندما غزا كلاً من عيذاب و أسوان في عام 1272م فكانت ردة فعل الممالك أن أرسلوا سلسلة من الحملات العسكرية لوضع حد لهجمات النوبة، وجعل مملكة مُقُرة دولة تابعة لمصر.⁽¹⁾ وتحقيقاً لهذه السياسة استغل سلاطين مصر خلافات البيت الحاكم حول إعتلاء العرش، وبعثوا بالأمراء النوبيين الذين أُسروا وعاشوا في مصر على رأس تلك الجيوش.⁽²⁾ كانت هذه الحملات التي شنّها سلاطين مصر على دولة مُقُرة من أهم الأسباب التي أضعفت الإطار السياسي لنظام الحكم في بلاد النوبة، ومهدت لغلبة العرب الذين استطاع روادهم من بني الكنز اعتلاء عرش النوبة في سنة 1323م، معتمدين على نظام وراثة العرش النوبي عن طريق الأم، وعلى تأييد النوبة المُستعربين، والعرب الذين صاحبوا الجيوش المملوكية، وتزوجوا بنات وأخوات الملوك فانقلبت السُلطة من داخل الأسرة الحاكمة من فرع نوبي مسيحي خالص، إلى أسرة من فرع نوبي مُسلم مُستعرب.⁽³⁾

بدأت حملات الممالك على مملكة مُقُرة في عهد السلطان بيبرس و ذلك بسبب الثورات التي كان يقوم بها البدو من العرب في صعيد مصر و الصحراء الشرقية، وقد أدت هذه الثورات إلى اضطراب سير القوافل، و إشاعة الخوف بين من يعملون في أرض المعدن، فاضطر السلطان بيبرس لتأمين تلك الطرق و مد نفوذه حتى ميناء سواكن، فأحس داؤود ملك النوبة بان الممالك بهذا العمل يهدفون إلى حرمان ممالك النوبة المسيحية من الاتصال بالعالم الخارجى عبر البحر الأحمر، فعبر عن استيائه هذا بتخريب عيذاب.⁽⁴⁾ ويرجع يوسف فضل السبب في هذه الأعمال العدائية التي قام بها داؤود ملك النوبة إلى تلك الرسالة التي أرسلها الملك داؤود للظاهر بيبرس يخبره باعتلائه عرش النوبة بعد أن أقصى خاله الذي صار ضريباً، فيجئ رد الظاهر بيبرس على عكس ما توقعه الملك داؤود، فأغار على عيذاب وعمل فيها ما عمل.⁽⁵⁾

إذن يمكننا القول بأن العلاقات بين النوبيين والممالك في بداية عهد الممالك، كانت عدائية، ولعل السبب في ذلك كما أورده المقريزي: أنه في عام 674هـ، كثر خبث داؤود متملك النوبة، وأقبل إلى أن قرب من مدينة أسوان وحرقت عدة سواق، فمضى إليه والي قوص فلم يدركه، وقبض على صاحب الجبل في عِدّة من النوبة وحملهم إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري بقلعة الجبل فوسطهم.⁽⁶⁾

الأمراء النوبيون والبلات المملوكي:

تبدأ قصة الأمراء النوبيين مع الممالك بالشكوى التي تقدم بها الأمير شكندة ابن أخت داؤود ملك النوبة إلى السلطان بيبرس متظلماً من خاله داؤود، فجرد السلطان معه الأمير شمس الدين آق سنقر الفرغاني الإستادار، والأمير عز الدين أبيك الأفرم أمير جاندار في جماعة كثيرة من العسكر، ومن أجناد الولايات وعربان

الوجه القبلي، والرماة، فساروا في أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا إلى أرض النوبة الذين خرجوا إلى لقائهم على النجب بأيديهم الحراب، فاقتتل الفريقان قتالاً كبيراً أنهزم فيه النوبة. ومن ثم أوغل الأفرم في بلاد النوبة براً وبحراً، يقتل ويأسر، فحاز من المواشي مالا يُعدُّ، ففر النوبة إلى الجزائر، وكتب لقمر الدولة نائب داوود متملك النوبة أماناً؛ فحلف شكندة على الطاعة، وأحضر رجال المريس ومن فرّ. وخاض الأفرم إلى برج في الماء وحاصره حتى أخذه وقتل به مائتين وأسر أحياناً لداوود. فهرب داوود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام وهم يقتلون ويأسرون، حتى أذعن القوم، وأسرت أم داوود وأخته، ولم يقدر على داوود. فتقرر شكندة عوضه. وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاثة فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود ومائة نجيب أصهب، واربعمائة رأس من البقر المنتجة. على أن تكون بلاد النوبة نصفين: نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجنادل فأنها كلها للسلطان لقربها من أسوان، وهي نحو الربع من بلاد النوبة، وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان، وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية، فيدفع كل بالغ منهم في السنة ديناراً عيناً. وكتبت نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك شكندة، ونسخة يمين أخرى حلفت بها الرعية. وخرّب الأميران كنائس النوبة وأخذ ما فيها، وقبض على نحو عشرين أميراً من أمراء النوبة، وأفرج عن من كان بأيدي النوبة من أهل أسوان وعيذاب من المسلمين في أسرهم، وألبس شكندة تاج الملك وأقعد على سرير المملكة بعد ما حلف. والتزم أن يحمل جميع ما لداوود ولكل من قُتل أو أُسر من مال ودواب إلى السلطان.⁽⁷⁾ ومن هنا بدأ تدخل المماليك الصريح في شؤون مملكة مُقرّة بعزل وتولية الملوك، حسب ولائهم للمماليك، وبعد أداء قسم الولاء والطاعة للسلطان المملوكي، هذا القسم الذي كان له أثر كبير على أسلمة مملكة مُقرّة لاحقاً.

استغل الملك بيبرس طلب الأمير شكندة بالدعم ضد الملك داوود، فتدخل في شؤون مُقرّة بارسال الحملة المذكورة أعلاه والتي اختلقت في طابعها عن سابقتها من الحملات التي أرسلها المسلمين ضد النوبة، فهي تُعتبر فتحاً إسلامياً حقيقياً للنوبة تحت حُجة خلع الملك داوود وتنصيب الأمير شكندة، وذلك من واقع الشروط والالتزامات التي قطعها شكندة على نفسه للمماليك في مصر والتي تقول:

إن الملك شكندة أصبح تابعاً للسلطان المملوكي، ونائباً عنه في حُكم بلاد النوبة.

أن يُطلع ملك النوبة السلطان المملوكي بكل ما يصل إليه من أخبار.⁽⁸⁾

ترتب على ذلك نتيجة خطيرة وهي، أن المماليك طبقوا على النوبيين لأول مرة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة أهل البلاد المفتوحة عنوةً، فعرض عليهم الإسلام أو القتال أو الجزية، واختار ملك مُقرّة دفع الجزية، فأصبح النوبيين بموجب ذلك أهل ذمة، ولهذا أنشأ السلطان بيبرس في مصر ديواناً أسماه ديوان النوبة، ومهمته مراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال لذلك، وما لبس المماليك أن أكدوا قسم اليمين التي حلفها الملك شكندة بيمين أخرى تتضمن ولائهم للسلطان المملوكي، وجاء في هذه اليمين الثانية: متى ورد علي مرسوم السلطان في ليلٍ أو نهار يطلبه (أي شكندة) إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته، ولا يتأخر بوجه من الوجوه إلا بمقدار ما يُدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر.⁽⁹⁾

ثم أكدوا هذا اليمين بنسخةٍ ثالثة حلف عليها أهل النوبة، وتعهدوا فيها بالطاعة لملك النوبة بشرط ولائه للسلطان المملوكي صاحب السُلطة العليا في مُقرّة، ولا طاعة له عليهم إذا خرج على السلطان المملوكي،

وأن يُطالعوا السلطان المملوكي إذا علموا على نائبه (شكندة) أمراً يُخالف المصلحة، والتعهد للسلطان المملوكي بدفع ينار عيناً كجزية وإرسالها إلى القاهرة.¹⁰

بينما أورد ابن خلدون رواية أخرى لنفس هذا الحدث مفادها: «أنه في سنة خمسة وسبعين، وفد على الظاهر بيبرس ملك نوبي يسمى (من تشكين)، مستنجداً به على ابن أخته داوود لما كان تغلب عليه، وانتزع الملك من يده، فوعده السلطان وأقام ينتظر. واستفحل ملك داوود وتجاوز حدود مملكته إلى قرب أسوان من آخر الصعيد، فجهز السلطان العساكر إليه مع إقسنقر الفرغاني وأبيك الأقرم أستاذ داره، وأطلق معهم (مرتشكين)، ملك النوبة، فساروا لذلك واستنفروا العرب وانتهوا إلى رأس الجنادل، واستولوا على تلك البلاد وأمنوا أهلها، وساروا في البلاد فلقبهم داوود الملك فهزموه، وأثخنوا في عساكره، وأسروا أخاه وأخته وأمه، وسار إلى مملكة السودان بالأبواب، ورائه فقاتله ملكها. وهزمه وأسره، وبعث به مقيداً إلى السلطان فاعتقل بالقلعة إلى أن مات، واستقر مرتشكين في سلطان النوبة على جارية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة، وعلى أن تكون الحصون المجاورة لأسوان خالصة للسلطان، وعلى أن يمكن ابن أخته داوود وجميع أصحابه من كل مالهم في بلادهم فوفى بذلك».⁽¹¹⁾

نلاحظ أن هناك اختلاف في اسم الملك النوبي الذي استنجد بالسلطان الظاهر بيبرس، حيث ورد في بداية النص باسم (من تشكين)، وفي منتصف النص باسم (مرتشكين)، نحن لا نعلم سبب اختلاف هذا الاسم هل هما اسمان لملك واحد أم أنهما إسمان لملكين مختلفين، لكن على ما يبدو أن هذين الإسمين هما إسمان لملك واحد والاختلاف فقط في طريقة النطق أو ربما خطأ مطبعي. كما نلاحظ أن هنالك اختلافاً كبيراً في اسم هذا الملك عند المقريزي وابن خلدون حيث أورده الأخير بالصيغ المذكورة آنفاً، أما المقريزي فقد أورده باسم شكندة، لكن من خلال الأحداث وتشابهها تبين أن هذا الملك الذي ذكره المقريزي هو نفس الملك الذي ذكره ابن خلدون على الرغم من هذا الاختلاف. وقد ورد هذا الملك عند يوسف فضل باسم أبو العز مرتشكر.⁽¹²⁾ لكن تشابه الأحداث يؤكد صحة الحادثة، مما يجعل اختلاف كتابة اسم الملك غير مهم.

إن السبب الذي دفع الظاهر بيبرس على مساعدة الأمير شكندة على خاله داوود ربما يعود إلى ذلك العدوان الذي قام به الأخير على أسوان، لكن المهم في الأمر أن الأمير شكندة حصل على هذه المساعدة وفُق شروط محددة وهي جارية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة، وعلى أن تكون الحصون المجاورة لأسوان خالصة للسلطان، وأن يمكن ابن أخيه داوود وجميع أصحابه من كل مالهم في بلادهم فوفى بذلك كما ذكرنا ذلك مسبقاً. لكننا نستطيع أن نستنتج من هذا الحديث أن البقط كان قد توقف قبل عهد المماليك وإلا لما طالب سلطانهم بمثل هذه الجارية والهدايا، ويبدو أن هذه الشروط السابقة الذكر تمثل إتفاقية جديدة بين النوبيين والمماليك حلت محل البقط. ويمكن القول أن السلطان المملوكي قام بهذه الخدمة حتى يضمن ولاء الملك النوبي شكندة ليكون له حليفاً، وبذلك يكون قد ضمن سلامة الحدود الجنوبية بينهما، حيث كانت هذه المنطقة كثيراً ما تسبب الاضطرابات الأمنية والحروب بين العرب والنوبة.

النوبة بعد الأمير شكندة:

تتسارع الأحداث في مُقَرَّة وموت شكندة مقتولاً في نفس العام الذي توفي فيه السلطان بيبرس، فوثب على عرش النوبة أمير يُدعى (يرك)، غير أن الطريقة التي وصل بها إلى الحكم جعلت السلطان قلاوون الذي

إعتلى عرش المماليك، لا يطمئن إليه، ولا يُبعد أن يكون هذا الملك حاول التخلص من السيادة المملوكية، وربما كان هذا هو السبب الذي حرك السلطان قلاوون ضده، فأرسل له حملة عسكرية بقيادة الأمير سنجر الذي تمكن من القبض على الأمير يرك وقتله، ثم خلفه على عرش مُقرة أمير يُدعى سمامون.⁽¹³⁾

بلغ أمر المماليك في بلاد النوبة مبلغاً عظيماً، لم يقتصر على مملكة مُقرة فقط، فيها هو ملك علوة يبعث هو الآخر سفراءه محملين بالهدايا للسلطان المملوكي ليعلموا له ولاءهم وخضوعه التام، وحكموه فيما نشب من خلافٍ بينهم وبين ملك دنقله سمامون، فعلم سمامون ملك دنقله بذهاب سفارة ملك علوة إلى مصر، فبادر هو أيضاً بارسال سفارة إلى السلطان قلاوون لثداف عن وجهة نظره، ولتشرح أسباب النزاع، وقد أرسل له هدية مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق، ومئتا بقرة. لكن السلطان قلاوون لم يقتنع بحجج الطرفين فأرسل معهما رسولين لحل الخلاف في بلاد النوبة، فأكملوا مهمتهم بنجاح.⁽¹⁴⁾

بعد هذه الحادثة ساءت العلاقة بين سمامون وقلاوون، بعث المنصور قلاوون سنة ست وثمانين العساكر إلى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط، وعز الدين الكوراني وسار معهم والي قوص عز الدين أيدير السيفي بعد أن استنفر العربان، وساروا على العدو الغريبة والشرقية في دنقله، وبرز سنجر للنوبيين فهزمهم، واتبعهم خمسة عشر يوماً وراء دنقله. ورتب ابن أخت سمامون في الملك ورجعت العساكر إلى مصر، فجاء سمامون إلى دنقله فاستولى على البلاد ولحق ابن أخته بمصر صريحاً بالسلطان، فبعث معه عز الدين أيبك الأفرم في العساكر ومعه ثلاثة من الأمراء، وعز الدين نائب قوص، وذلك سنة ثمان وثمانين، وبعثوا المراكب في البحر بالأزودة والسلاح. ومات ملك النوبة بأسوان ودفن بها. وجاء نائبه صريحاً إلى السلطان، فبعث معه داؤود بن أخ مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة، وتقدم جريس بين يدي العساكر، فهرب سمامون، وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمسة عشر مرحلة وراء دنقله و وقف العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب إلى الجزيرة من كثرة الحجر، وخرج بيتمانون منها، فلحق بالأبواب، ورجع عنه أصحابه، ورجعت العساكر إلى دنقله فملكوا داؤود، ورجعوا إلى مصر سنة تسع وثمانين لتسعة أشهر من مسيرهم، بعد أن تركوا أميراً منهم مع الملك داؤود وبعث الأمير الذي كان معهم إلى السلطان وحمله رغبة في الصلح على أن يؤدي الضريبة المعلومة. فأسعف لذلك واستقر في ملكه.⁽¹⁵⁾

في هذا العهد أخرج السلطان قلاوون الملك النوبي داؤود من أسرهِ بسجن القلعة ونصبه ملكاً على بلاد النوبة بدلاً عن الملك سمامون عدو السلطان قلاوون. وقد اتسمت العلاقات بين النوبيين والسلطان قلاوون في هذه الفترة بالطابع العدائي المتمثل في الحرب ضد ملك النوبة سمامون. إلا أننا نلاحظ أنه كلما مضى الزمن اختفت سيرة البقط، حيث أنه في هذا العهد تغير الوضع بعد أن كان في عهد المماليك جراية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة، نجد أن ابن خلدون أورد في روايته مصطلح «ضريبة» كان قد التزم بدفعها الملك النوبي بيتمانون للسلطان قلاوون، إضافة إلى ذلك فقد لفت انتباه الباحث ظاهرة استنجاد الملوك النوبيين برصفائهم من المسلمين، هذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى الضعف الذي وصلت إليه بلاد النوبة في هذه المراحل الأخيرة من عمرها. وربما كان السبب في ذلك الصراع حول العرش الذي قاد إلى الفتن الداخلية التي برزت إلى السطح في شكل تنافس على كرسي الملك. وقد أرهق هذا الوضع بلاد النوبة وأدى إلى تفككها وربما انهيارها في آخر المطاف.

تنصيب الأمير داؤود:

نلاحظ أن الملك النوبي قد قام بإرسال الأمير المملوكي الذي كان موجوداً في دنقله مع الملك داؤود كما أشرنا لذلك مُسبقاً، إلى السلطان قلاوون ليؤكد له ولاءه له. وقد أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشي نسخة من اليمين التي حلف عليها ملك النوبة للسلطان قلاوون عند استقراره نائباً عنه في بلاد النوبة وهي: «والله والله والله، وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية، والأنبياء والرسل والحواريين والقدسين والشهداء الأبرار، وإلا أجحد المسيح كما جحده بودس، وأقول فيه ما يقول اليهود، واعتقد ما يعتقدونه، وإلا أكون بودس الذي طعن المسيح بالحربة: إنني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك فلان، وإني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإنني ما دمت نائبه لا أقطع المقرر عليّ في كل سنة تمضي: وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد وحفظها من عدو يطرقها، وأن يكون في كل سنة كذا وكذا. وإنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً، وإني لا أترك شيئاً من السلاح ولا أخفيه، ولا أُمكّن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررت، أو عن شيء من هذا المذكور أعلاه كله، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة العذراء الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلي إلى غير الشرق، وأكسر الصليب، واعتقد ما يعتقد اليهود. وإنني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة، طالعت بها السلطان في وقته وساعته، ولا انفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة. وإنني وليّ من وإلى السلطان وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل».⁽¹⁶⁾

تشير هذه اليمين التي حلفها الملك النوبي داؤود على استقراره نائباً للسلطان قلاوون في بلاد النوبة والتي عاد بموجبها ملكاً على النوبيين، إلا أن هذه البلاد قد أصبحت في ذلك الوقت تابعة بصورة غير مباشرة إدارياً للسلطان قلاوون مما يؤكد ضعف ملوك النوبة آنذاك. لم يحدد القلقشندي في النص الذي أوردناه ما يجب أن يدفعه الملك النوبي للسلطان واكتفى بكذا وكذا. علاوة على ذلك ورد في نص اليمين أن الملك النوبي قال: إنه سوف يقرر على كل نفر من الرعية الذين (تحت يده) ديناراً، يجب علينا التوقف قليلاً هنا في هذه العبارة لأنها تحمل في معناها الشيء الكثير من أن بلاد النوبة لم تعد بأكملها تحت سيطرة الملك. وهذا يؤكد ما أوردناه سابقاً بأن تلك البلاد كانت تمر بمرحلة تفكك وتدهور مريع ربما نتج عنه استقلال بعض الأجزاء منها عن مركز حكمهم في دنقله، وإلا لما أورد هذا الملك هذه العبارة السابقة، ويبدو أن بلاد النوبة في هذه الفترة كانت تعيش في أيامها الأخيرة. ونستطيع أن نفترض أنها لم تعد بتلك الأهمية السابقة بالنسبة للمسلمين حكام مصر حيث صممت المصادر العربية بعد هذه الحقبة عن ذكر بلاد النوبة وعلاقاتها معهم. مما تعذر على الباحث متابعة دراسة الحقب التي تلت هذه الفترة المضطربة من تاريخ بلاد النوبة، حيث تنعدم المعلومات عنها تماماً. وبناءً على ذلك يعتقد الباحث أن ممالك النوبة قد انهارت بعد هذه الفترة من التدهور والانحلال.

تقدم لنا فيما سبق غزو الترك للنوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، ولعل السبب في ذلك عدم التزام الملوك النوبيين في دفع الجزية وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون عن أدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا. وكان ملكهم بدنقله أيام سارت العساكر من قلاوون إليها ستة ثمانين

وستمائة اسمه سمamon، ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه أي، لا ندري إن كان قد خلف سمamon أو توسط بينهما متوسط، وتوفي أي سنة ست عشرة وسبعمائة ميلادية، وملك بعده في دنقله أخوه كرنبس، ثم نزع من بيت ملكهم رجل إلى مصر اسمه عبدالله نشلي، وأسلم فحسن إسلامه، وأجرى له رزقاً وأقام عنده: فلما كانت سنة ست عشرة امتنع كرنبس عن أداء الجزية، فجهز إليه السلطان المملوكي العساكر، وبعث معها عبد الله نشلي الهاجر إلى الإسلام من بيت مُلكهم، فقام كرنبس عن لقائهم وفر إلى بلاد الأبواب، ورجعت العساكر إلى مصر، واستقر نشلي في ملك النوبة على حاله من الإسلام. وبعث السلطان إلى ملك الأبواب في كرنبس، فبعث به إليه، وأقام بباب السلطان، ثم إن أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بإيعاز من جماعة من العرب وبعثوا عن كرنبس ببلد الأبواب فألفوه في مصر. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها، وانقطعت الجزية بإسلامهم، ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وملأوها عبثاً وفساداً، وذهب ملوك النوبة إلى مدافعهم فعجزوا، ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمامتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن البنت، وليس في طريقه شيء من السياسة المملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم لبعض، فصاروا شيعاً لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وإنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب. ولم يبق لبلادهم رسم للملك. لما أحلته صبغة البداوة العربية بالخلطة والالتحام.⁽¹⁷⁾ وهنا تردُّ أول إشارة صريحة على إسلام أهل مُقرة.

إن هذا النص الذي أورده ابن خلدون فيما سبق، يُعد خير دليل على حالة بلاد النوبة التي كانت تنتقل من سيئ إلى أسوأ، كما أنه منحنا وصفاً شاملاً لما آلت إليه الأمور في أواخر العهد النوبي المسيحي، وكيف أن ملك بلادهم قد ضاع منهم بسبب مصاهرة العرب الذين امتلكوا بلاد النوبة فيما بعد مستفيدين من نظام الوراثة عن طريق الأم، وقد ذكر ابن خلدون أيضاً في حديثه إشارات إلى بداية تسرب المد الإسلامي إلى الممالك النوبية المسيحية، ويظهر ذلك من إسلام الملك نشلي الذي أسلم وحسن إسلامه واستقر بعد ذلك في ملك النوبة على حاله من الإسلام، وقد عفيت المملكة النوبية الشمالية (مُقرة) من الجزية بسبب إسلام ملكها ومن ثم أهلها. وهذا يقودنا إلى أن الإسلام قد بدأ بالملوك في النوبة ومن ثم بدأ عامة أهلها باعتراف الإسلام رويداً رويداً، بدءاً بالبلاط الملكي وربما تدرج بعد ذلك إلى أن أصبح الدين الرسمي للمملكة وهنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ السودان الوسيط وهي مرحلة الممالك الإسلامية.

ظلت الأوضاع في مملكة مُقرة على النحو حتى وفاة السلطان قلاون والذي خلفه ابنه خليل، فامتنع ملك مُقرة سمamon من دفع الجزية، فكانت ردت السلطان خليل أن حبس والده سمamon وبقية أهله رهائن في دار الضيافة بالقاهرة، وفي نهاية الأمر أرسل السلطان خليل حملة عسكرية لعزل سمamon بقيادة عز الدين الأخرم، فهرب سمamon إلى مكان مجهول انقطعت أخباره وأغلب الظن أنه مات مقتولاً، وخلفه الأمير آني في مملكة مُقرة وفي عداوته للسلطان خليل، ولهذا أرسل السلطان خليل من القاهرة أميراً نوبياً يُدعى (بُدْمَه)، لمحاربة الأمير آني، وعقد الأمير الأخرم اجتماعاً كبيراً بحضور أمراء النوبة وأعيانها في كنيسة سوس بدنقله، وعيّن بُدْمَه ملكاً على مُقرة بعد أن أقسم يمين الولاء والإخلاص للسلطان خليل، وتبعه جريس (ولعله كان أخاً لسمamon)، فأقسم يمين الولاء والطاعة، ويبدو أن جريس هذا كان نائباً لبُدْمَه، ثم تلى ذلك صيغة يمين أخرى

حلف عليها الإثنان بأنه لو ثار أحدهم ضد السلطان، جرد الآخر ضده السلاح للمحافظة على حقوق السلطان، ثم تبعهما الأمراء ورجال الدين، وكما هي العادة، فإن صيغة يمين أخرى حلف عليها النوبيين بالولاء للملك الجديد بشرط ولائه للسلطان المملوكي، ومن جملة ما قالوه: «لو لا مولنا السلطان لما أطعناك، ومتى تغيرت أمسكتناك، ونحن نرضى أن يُقيم مولانا السلطان ملكاً فلاحاً أو جليلاً، فإن بلاد النوبة ما لها ملكٌ إلا مولانا السلطان، ونحن رعيته».¹⁸

لعل لجوء الأمراء والملوك النوبيين إلى المماليك لمساعدتهم في استرداد ملكٍ مسلوب، أو سند ضد ملك نوبي آخر، عزز سيطرة المماليك على بلاد النوبة، تارة بحبس الأمراء، وأخرى بفرض قسم يمين الولاء والطاعة للملوك النوبيين والأمراء ورجال الدين وعامة الشعب للسلطان المملوكي، فكانت هذه هي الأسلحة التي تسلح بها المماليك لفرض سيطرتهم على النوبة.

مثلت حضارة الممالك النوبية المسيحية واحدةً من أرقى حضارات القرون الوسطى، ومثلت أنصع الصفحات تألقاً في التاريخ النوبي، وكانت هذه الممالك تعيش عموماً في علاقات متنوعة مع جيرانها المسلمين و الأقباش.

الأمير سيف الدين عبدالله برشمبو:

كان للحملات العسكرية التي أرسلها المماليك إلى بلاد النوبة أثر كبير، ومثلت نقطة تحولٍ كبيرة في تاريخ بلاد النوبة، لأن هذه الحملات كانت تأتي بأسرى نوبيين فيهم عددٌ كبيرٌ من الأمراء، وأفراد البيت المالِك، وبعض المطالبين بالعرش النوبي، وكلهم أودعوا سجن القلعة، واتجهت سياسة المماليك إلى استمالة أولئك الأمراء، فأعادت بعضهم إلى النوبة ضُحبة الجيوش المملوكية لتعيينهم ملوكاً عليها، ولا سيما بعض الذين أسلموا منهم، ومن أمثلة هؤلاء أميرٌ تُطلق عليه بعض المراجع سيف الدين عبدالله برشمبو النوبي، الذي تشير المعلومات بأنه أسلم وحسن إسلامه، وأقام بمصر بالأبواب السلطانية، وأجرى عليه السلطان محمد بن قلاوون رزقاً.¹⁹

ثم بعد ذلك بدأت تظهر معالم التدهور، حيث صمت التدوين التاريخي لمائة عام بعد المؤرخ أبو صالح، وعندما أُستئنِف مؤخراً في القرن الثالث عشر تمخض عن نوبة غير التي نعرفها، حيث احتجبت مملكة علوة عن الوجود بأكملها، بينما كانت مُقَرَّة تترنح في وضوح نحو السقوط، نسبة للانقسامات الأسرية، توجت في عام 1317م، ببلوغ أمير مسلم لعرش دنقله،⁽²⁰⁾ وهو الأمير عبد الله برشمبو الذي منح فيما بعد لقب سيف الدين. وبعثاء سيف الدين عبد الله برشمبو عرش النوبة بدأ مرحلة جديدة في تاريخ بلاد النوبة تميز بظاهرتين: الأولى: تمكّن بني ربيعة من الكنوز بعد سنة واحدة من الوصول إلى عرش بلاد النوبة. و الثانية: اعتناق النوبيين للدين الإسلامي، و انتهاء النصرانية كدين رسمي في بلاد النوبة.⁽²¹⁾ وقام هذا الملك بتحويل كنيسة دنقله الكبرى إلى مسجد وما تزال اللوحة التذكارية الموجودة في فناء المسجد تحمل اسمه إلى الآن.⁽²²⁾ قابل النوبيون قرار تنصيب عبدالله برشمبو ملكاً عليهم بالرفض، وهنا يظهر بنو الكنز على مسرح الأحداث بصورة واضحة، فادعى أميرهم كنز الدولة مُلك المُقَرَّة لأنه مسلم وابن أخت الملك كرنبس ومن بعد كرنبس يجب أن ينتقل المُلك إليه حسب التقليد المُتبع في بلاد النوبة، فأرسل الملك كرنبس للسلطان المملوكي لكي يُعين ابن اخته كنز الدولة ابن شجاع الدين ملكاً على مُقَرَّة بدلاً من عبدالله برشمبو، لكن هذا العرض

لم يجد قبولاً عند السلطان الناصر فقبض على كنز الدولة ومنعه من العودة إلى بلاد النوبة، وأرسل حملة مملوكية بقيادة الأمير أيك جهازي عبد الملك سنة 1316م، لتأييد الأمير عبدالله برشمبو ملكاً على مُقَرَّة، وقُبض على كرنبس، وهكذا استقر عبدالله برشمبو كأول أمير مسلم على بلاد النوبة، لكن النوبيين ثاروا عليه لغلظته، فأنحاز لهم بني الكنز فالتفوا حول كنز الدولة بعد أن أفرج عنه ونادوا به ملكاً عليهم فحارب برشمبو وانتصر عليه وقتله.⁽²³⁾

لكن السلطان الناصر رفض الاعتراف باعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، بسبب أن تولية ملك عربي حُكم النوبة سوف يؤدي إلى زوال نفوذ المماليك، ولهذا أطلق السلطان صاح الأمير النوبي أبرام أخ كرنبس، وطلب إليه أن يحتال في القبض على ابن أخته كنز الدولة، ووعدته باطلاق صراح أخيه كرنبس واعادته إلى عرش النوبة، ولما وصل أبرام إلى دنقله خرج إليه كنز الدولة طائعاً، ويُقال أنه سلم إليه الملك وصار في خدمته، ثم سار معه شمالاً ليحس النوبيين على طاعة خاله أبرام، غير أن أبرام لم يرع العهد، فقبض على ابن أخته كنز الدولة ليرسله مُقيداً إلى القاهرة، ولم يُنقذه من هذا المصير سوى موت أبرام.⁽²⁴⁾ ومن جديد يلتف النوبيين حول كنز الدولة، فيرسل السلطان الناصر حملة تعزله وتولي كرنبس، فيظهر كنز الدولة مرة أخرى ويُطيح بكرنس، ويبقى الحال هكذا بين الشد والجذب حتى يستقر الأمر إلى كرنبس مرة أخرى، ويقول القلقشندي: فبعث السلطان المملوكي، كرنبس فملك أرض النوبة وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم.⁽²⁵⁾

كيف ما كان الأمر إن انتقال العرش النوبي من الملوك النوبيين المسيحيين إلى الأمراء النوبيين الذين كانوا يقيمون في مصر المملوكية، والذي تشبعوا بالثقافة الإسلامية العربية، كان هذا هو العامل الحاسم في تحول مملكة مُقَرَّة من الديانة المسيحية إلى الإسلام، ويرجع الفضل في ذلك إلى الأمراء النوبيين الذين حبسوا بسجن القلعة بالقاهرة في عهد المماليك. وهكذا في خلال فترة وجيزة تحللت المملكة النوبية الشمالية، التي كانت قد حافظت على وحدتها منذ أوقات ما قبل المسيحية.

هنا يُمكننا أن نرى الدور الذي لعبه بني الكنز في سقوط مُقَرَّة، لكن هذا لا ينفي أن جُهينة كانت من أهم وأكبر القبائل العربية التي توغلت في السودان، ومن ثم قامت بدور كبير في الهجرة العربية، نتج عن سقوط مملكة مُقَرَّة المسيحية أن تدفق المهاجرون العرب في أعداد كبيرة إلى السودان واندفعوا فيما بعد إلى المنطقة الوسطى من حوض النيل، وأرض البطانة والجزيرة، ثم نحو مملكة علوة.²⁶

الخاتمة:

تعتبر فترة حكم المماليك بمصر هي علامة فارقة في تاريخ مملكة مُقَرَّة المسيحية، إذ بدأت الأحداث بذهاب بعض الأمراء والملوك النوبيين وطرقهم أبواب السلطان المملوكي للاستعانة بهم في تحقيق مطامعهم وأحلامهم في العرش النوبي. من النتائج التي توصلت لها هذه الدراسة أن المماليك لم يفوت هذه الفرصة وأستغلوها أحسن إستغلال، فتدخلوا بموجب ذلك في شؤون مملكة النوبة، فأرسلوا الحملات العسكرية مساندةً لمولايهم من الأمراء النوبيين، فكانت هذه الحملات كل ما عادت تأتي بعدد لا بأس به من الأمراء والملوك المعارضين فيتم حبسهم بسجن القلعة بالقاهرة حتى زاد عددهم، وطالت فترة اقامتهم بالقاهرة فتبشعوا بالثقافة الإسلامية مما حدى بهم إلى اعتناق الإسلام، فكان ذلك عاملاً حاسماً في عملية أسلمة مملكة النوبة الشمالية (مُقَرَّة)، وذلك من واقع الدور الذي لعبه هؤلاء الأمراء المسلمين بعد تعيينهم من قبل

المماليك الذين قاموا بعزل الملوك النوبيين المسيحيين وتعيين الأمراء المسلمين المحبوسين بسجن القلعة حتى تمت عملية أسلمة مملكة مُقُرة عن طريق هؤلاء الأمراء الذين ترعرعوا في كنف الثقافة الإسلامية. نتائج الدراسة: من النتائج التي توصلت إليها الدراسة: أن المماليك كانت لهم الكلمة العليا في بلاد النوبة، وأنهم كانوا من يعينون الملوك ويعزلونهم حسب ولائهم لهم. كانت النتيجة الأهم من خلال هذه الدراسة أن الملوك النوبيين الذين تم حبسهم بسجن القلعة قد تشبعوا بالثقافة الإسلامية وأدبها فعتنقوا الإسلام تدريجياً. وعندما نصبهم المماليك ملوكاً على عرش مُقُرة عملوا على أسلمتها.

الهوامش:

- (1) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، 1911، ص، 211
- (2) نفس المرجع، ص، 234.
- (3) القلقشندي، الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، ت 821هـ/1418م، صبح الأعشا في صناعة الإنشأ، ج1، القاهرة، 1963، ج8، ص، 7.
- (4) كرم الصاوي باز، ممالك النوبة في العصر المملوكي، مكتبة الأنجلو مصرية، 2006م، ص، 49.
- (5) Yusuf Fadh Hasan., The Arabs and the Sudan, SUDAT EK Limited, Khartoum, 2010., p.107.
- (6) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي بن الحسين بن علي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الأول، باريس، 1906، ص، 307.
- (7) نفس المرجع، ص، 299-297.
- (8) المقرئزي، تقي الدين أحمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، ط1، القسم الثاني، بيروت، 1997م، ص، 632.
- (9) المقرئزي، المواعظ، مرجع سابق، ص، 202، 403.
- (10) النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج8، في المكتبة السودانية العربية، جمع وتحقيق، مصطفى محمد مسعد، ط2، 2014، ص، 259.
- (11) ابن خلدون، عبدالرحمن، كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ج5، 1967، ص، 864-862.
- (12) Yusuf Fadh Hasan, op.cit, p.106.
- (13) مؤلف مجهول، مخطوطة تاريخ قلاون، تشریف الأيام والعصور بسيرة المنصور قلاون، ج2، مخطوطة بالخزانة التيمورية 2226، ص، 310.
- (14) نفس المرجع، ص، 310، 200
- (15) ابن خلدون، مرجع سابق، ص، 864-863.
- (16) القلقشندي، مرجع سابق، ص، 291-290.
- (17) ابن خلدون، مرجع سابق، ص، 923-921.
- (18) نفس المرجع، ص، ص، 311-308.
- (19) مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، 1960، ص، 165.
- (20) Adams, W.Y., Nubia Corridor to Africa, Allen Lane, London, 1977, p.508.
- (21) كرم الصاوي باز، مرجع سابق، ص، 127-126.
- (22) Yusuf Fadh Hasan, op.cit, p.125.
- (23) النويري، مرجع سابق، ص، ص، 217، 235.
- (24) نفس المرجع، نفس الصفحات.
- (25) القلقشندي، مرجع سابق، ص، 9 وما بعدها.
- (26) يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي 1450-1821، سوداتك ليميتد، الخرطوم، 2012، ص، 21.